ماوراء الرداء

بقلم جبران خليل جبران

****

عندما انتصف الليل فتحت راحيل عينيها وحدّقت هنيهة بسقف الغرفة ثم أغمضتهما وتنهدت تنهدة عميقة متقطعة ، وبصوت يكاد ان يكون لهاثاً قالت —

« ها قد بلغ الصباح أطراف الوادي ، فلنذهب الى لقائه »

فاقترب اذ ذاك الكاهن من مضجعها وجس يدها فوجدها باردة كالثلج ثم وضع اصابعه بلطف فوق قلبها فألفاه ساكناً كالدهور ، فاحنى رأسه وارتعشت شفتاه كأنه يريد ان يلفظ كلمة علوية تردداها اشباحَ الليل في تلك الاودية القاصية الخالية . ثم صلّب ذراعيها فوق صدرها والتفت نحو الرجل الجالس في قرنة مظلمة من تلك الغرفة وقال بصوت ملوءه الشفقة والانعطاف —

« قد ذهبت زوجتك الى لقاء ربها . فقم ، يا اخي ، واركع بجانبي لتصلي . »

فرفع الرجل رأسه وقد تغيرت ملامحه وكبرت عيناه كأنه رأى في فضاء الغرفة ظل اله غير معروف . ثم وقف بهدوء وتقدم من مضجع زوجته وركع بجانب الكاهن مصلياً ، منتحباً ، راسماً بين الآونة والاخرى شارة

الصليب عَلَى وجهه وصدره ٠

وانتصب الكاهن واضعاً يده عَلَى كتف الرجل قائلاً —

« قم ، يا اخي ! تعال الى الغرفة الثانية ٠ فانت بحاجة الى النوم والراحة »

فلم يبدِ الرجل معارضة ؛ بل وقف وسار الى الغرفة المحاذية ورمى بنفسه عَلَى سرير ضيق ممدداً جسده شأن من ينهكه الهم والسهر والانتظار ولم تمر بضع دقائق حتى غلب النوم اجفانه فرقد كطفل بين ذراعي امه

٠ ٠ ٠

اما الكاهن فظل منتصباً كالتمثال في وسط تلك الغرفة ينظر بعينين غارقتين بالدموع نحو جثة الصبية الباردة ويلتفت كل دقيقة نحو زوجها النائم في الغرفة المحاذية

ومرّت ساعة اطول من الدهر واشد هولاً من الموت والكاهن واقف بين رجل وامرأة راقدين — رجل راقد رقود حقل يحلم بمجيء الربيع ، وامرأة راقدة مع الازمنة الغابرة تحلم احلام الابدية

حينئذٍ اقترب الكاهن من مضجع الصبية وجثا امامها كما يجثو امام المذبح ، ثم أخذ يدها الباردة ووضعها عَلَى شفتيه المرتجفتين ونظر الى وجهها المتشح بنقاب الموت وبصوت هادىء كالليل عميق كالبحر مرتعش كآمال البشر قال —

« يا راحيل ، يا راحيل ، يا اخت روحي ، اسمعيني يا راحيل فانك استطيع الان الكلام ٠ قد فتح الموت شفتيّ لابوح لكِ بسر أعمق من

الموت ؛ واطبق الالم لساني لاكشف لك أمرا اشد من الالم · اسمعي صراخ روحي ايتها الروح المرفرفة بين الارض واللانهاية · اسمعي الشاب الذي كان يراك راجعة من الحقل فيتنحى محتجباً بين الاشجار خائفاً من جمال وجهك · اسمعي الكاهن الذي يخدم الله فهو يناديك الان بلا وجل لانك بلغت مدينة الله »

همس هذه الالفاظ ثم انحنى فوقها وقبل جبهتها وقبل عينيها وقبّل عنقها — قبلات طويلة حارّة ، خرساء ، علوية تبين ما في نفسه من اسرار الحب والالم ·

ثم تراجع فجأة الى الوراء وارتمى عَلَى الارض مرتعشاً كاوراق الخريف كأن ملامسة وجه المرأة المثلجة قد ايقظت في داخله عاطفة الندم ثم انتصب جاثياً ساتراً وجهه بيديه قائلاً في سره —

« اغفر ذنبي ، يارب ! سامح ضعفي ، يا الهي ! فانا لم اتجلد حتى النهاية فالسر الذي اختفته الحياة في قلبي سبعة اعوام قد اباحه الموت بدقيقة واحدة · اغفر لي يا رب ، سامح ضعفي يا الهي ···· »

وظل عَلَى هذه الحالة ينتحب ويتوجع ويميل برأسه ذات اليمين وذات اليسار ولا ينظر الى جثة الصبية خائفاً عَلَى نفسه من خفايا نفسه حتى جاء الصباح والقى وشاحه الوردي عَلَى تلك الرسوم الهيولية التي تمثل الحب والدين والحياة والموت ·